آراء المستشرق فرانشسكوا غابريلي في الإسلام في منطقة البحر التوسط

شيماء حسين علي العاني

كلية التربية للبنات / جامعة الموصل

القبول	الاستلام
٠٣ / ٠٦ / ٢٠٠٩	٢٥ / ٠١ / ٢٠٠٩

Abstract

Opinions of franshecko gabriley about Islam in the mediatecaion region.

There is a old conflict between the evil and the right, meanwhile the profits who the most people affected by this conflict.

The Islam religions is affecting by the most consequences of this conflict in both post and present time.

Some of those oriental scientists attack and try to jeciease it's value while the others detince about Islam and it's believes.

ملخص البحث

لقد اهتم المستشرقون عموما بالتاريخ الإسلامي والدين الإسلامي فظهر صنفان علـى الساحة الاستشراق صنف وجد ليحكم على الإسلام والمسلمين بانه الطاعون الذي انتشر فـي أوربا والعالم وصنف اخر وجد ليفند أحكام الصنف الأول ويظهر أحقية الإسلام بنشر الرسالة ومن هم المسلمين الذين فتحوا تلك البقاع وما هي صفاتهم وكيف كان تعاملهم مع أهالي البلاد المفتوحة وقد اظهر لنا المستشرق غابريلي كيف انتشر الإسلام في منطقة البحـر لمتوسـط وكيف ازدهرت تلك المنطقة فنياً اقتصادياً وعلمياً ودينيـاً علـى أيـدي المـسلمين واظهـر المستشرق كيف ازدهرت أوربا بفضل الإسلام وحققت كل أهدافها سواء على الصعيد العلمي أو الاقتصادي.

المقدمة:

كانت الحضارة العربية الإسلامية أعظم الحضارات في العصور الوسطى دون منازع، ومن الواضح ان البيئة التي نمت فيها هذه الحضارة حتى استوت على عودها كانت موطنا لكثير من الحضارات القديمة المزدهرة فلا مناص من حدوث تجاوب بين القديم والحديث فاخذ المسلمون واقتبسوا من الحضارات التي سبقتهم وتأثروا بها ثم تناولوا ذلك القديم بالشرح والتصحيح والتغيير والتبديل والحذف والإضافة ويخيم عن ذلك حضارة جديدة لها طابعها الخاص وهو طابع الإسلام فالحضارة الفارسية الهندية هي بمثابة المؤثر الأجنبي الأول التي استمدت منه الحضارة العربية الإسلامية فقد نبغوا في السياسية والإدارة والحروب ومظاهر العمارة والفنون والأدب والعلوم، فلما فتح العرب بلاد فارس وقوضوا عرش الدولة الساسانية دخل الفرس في الدين الإسلامي أفواجاً وصاروا مواليين للفاتحين وبدخولهم الإسلام طرحوا ديانتهم ولغتهم السابقة واقبلوا على الإسلام يدرسونه وعلى اللغة العربية يحتضنوها.

اما المؤثر الأجنبي الاخر فهو الحضارة اليونانية والرومانية وهو ما يهمنا في بحثنا هذا لانه متعلق بمنطقة البحر المتوسط وبروز الإسلام هناك دينا وفنا وعمارة وحركة إنسانية، ولانغفل ان المؤثر الثاني (الحضارة اليونانية الرومانية) هي امة عريقة برعت في الفلسفة والعلوم والأدب والفنون، وفي القرون السابقة لمجيء الإسلام نقل السريان في الشام والعراق إلى لغتهم السريانية الكثير من هذه العلوم والفنون وجاءت حركة الترجمة التي بلغت اوجها في عهد العباسيين لتعمل على نقل تلك الحضارة بمعطياتها إلى اللغة العربية فالمدقق بهذا الموضوع يدرك ان الحضارة الإسلامية التقت بالتقاليد المختلفة في الأقاليم التي انطوت تحت لواء الإسلام وصارعتها فقضت على ما يخالف الدين الإسلامي وأعطى الإسلام في تشريعاته الفرصة للوفاق والامتزاج الحضاري، وكان انتشار الحضارة الإسلامية سهلاً يسيراً كانتشار الدين نفسه فالمسلمون لم يبذلوا جهودا كبيرة في نشر دينهم وحضارتهم وكان دورهم في ذلك ان قدموا الدين لطالبيه وعلموا الناس سلوك هذا الدين ونظمه وهذا يختلف عن نشر المسيحية التي كانت تجعل الناس على اعتناقها بمختلف الأساليب، بينما الإسلام كفل لأصحاب الديانات الأخرى والحرية بل سوى بينهم وبين المسلمين في الحقوق والواجبات وقد شملت الحضارة الإسلامية والنواحي النظرية والنواحي العمرانية فعرفت الشعوب قاعدة الشورى في الحكم ونظام البيعة وعرفت الشعوب في الاقتصاد حق الفقير من مال الغني ونظام بيت المال ورد الأمانات إلى أهلها كما عرفوا في الآداب الدينية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والتزموا بترك المحرمات وأداء الصلوات وعرفوا في الأدب الاجتماعي واللباس الفضفاض والعمامة والقلنسوة وكان ميدان العمارة والانشاء من الميادين الأخرى الهامة التي ترك فيها المسلمون بصامتهم الواضحة فخلفوا في حواضر الإسلام الكبرى في مشرقه ومغربه على السواء

كطشقند وبخارى وسمرقند وفرغانة وهراة والموصل وسامراء ودمـشق وحلـب والقيـروان وتونس وتاهرت وفاس ومراكش وغيرها من المناطق التي دخلهـا الإسـلام وعـاش فيهـا المسلمون كجزيرة صقلية وجنوب فرنسا وايطاليا، في هذه البلاد وتلك المدن خلف المـسلمون العديد من المباني والعمائر كالمساجد والمدارس والكتاتيب والاضرحة والقصور والحمامـات والخنقاوات والوكالات والفنادق والاسبلة والقلاع والحصون والأربطة وغير ذلك من المنشأت الدينية والاجتماعية والحربية والاقتصادية التي ما يزال الكثير منها محتفظا بتخطيطه وهندسته كشاهد حي على ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية وما بلغته حياة المسلمين من ترف وثراء.

المبحث الأول: فتح اسبانيا

يؤكد غابرييلي لقد كانت شبه جزيرة ايبريا هي المكان الذي جرى فيه الاتصال المثمر والمشرق بين الإسلام والحضارة الأوربية الناشئة وهو الاتصال الذي ظل يتطور على مـدى سبعة قرون فهنا وأكثر من أي ارض أخرى على البحر المتوسط، تـوافر لـدى الاسـتيطان العربي سيطرة الدين الإسلامي الوقت والوسيلة للتغلغل في البنية العرقية والاجتماعية والثقافية ولدى انسحاب العرب في اخر المطاف كانوا قد تركوا هذه البنية وقد تغيرت تغيراً كبيراً، في حين ان مرور العرب في ايجة لم يكن إلا حادثاً عابراً، وفي صقلية عبارة عن فترة اعتراضية في التاريخ اليوناني – اللاتيني في حين ان العنصر العربي بقي في اسبانيا عنصرا أساسياً في مظهر البلاد وفي مصيرها(١).

ويضيف غابرييلي "لقد ترك الفاتحون تأثيرهم العربي على اسبانيا من خلال انتـشار العروبة والصفة العربية في الغرب وقد طعمت في جو من التسامح النسبي والتداخل الثقـافي مع بقايا اللاتينية الايبيرية التي لم يكن الحكم القوطي قدمها، وكذلك كان هنالك قرنـان مـن النجاح السياسي المتصاعد الذي وصل إلى الأوج في ذلك العصر العظيم"(٢).

لقد منح الفاتحون المسلمون السلام والأمان لسكان البلاد المفتوحـة وكـان تـأثيرهم السياسي والاجتماعي والثقافي ناجحاً.

ويضيف غابرييلي "ان عنصر العروبة هي السمة الواضحة هناك ...... لكن بـرغم ظهور هذه السمة الا انه لادين الفاتحين، ولالغته ولاعرقه لم يستطيع ان يحـل محـل ديـن الشعب المقهور أو عرقه أو لغته .... وهذا التناقض قد ولد الحضارة العربيـة – الاسـبانية المركبة".

وهذا برهان واضح على ان الفاتحين استخدموا مبدأ السماحة الدينية في هـذه الـبلاد وأعطوا الأديان الأخرى الحرية الدينية والسماح بممارسة شعائرهم وتقاليدهم تحـت غطـاء الدولة العربية الإسلامية ولم يكرهوا أحداً في دخول الإسلام ولم يرهقوا الـشعوب بحـروب

تحت وطأة نشر الإسلام(٣) وهذا التسامح من قبل الفاتحين لم يستطيع محو الأمواج النقية العرقية للدين الإسلامي رغم امتزاجها بالدماء الجرمانية واللاتينية(٤) إلا ان الحقوق التي منحت للديانات الأخرى.

والواجبات التي التزموا بها، أسهمت في نشر الدين الإسلامي (٥) بسرعة وهو غاية الفتح والفاتحين فيقول ((لقد انتشر دين بلاد العرب الذي جلبه الفاتحون معهم في شبه الجزيرة وبسرعة كما حدث في جميع البلاد التي فتحها العرب، وأصبح هو السائد بسرعة بين بلاد السكان الأصليين ون لم يصبح هو الدين الوحيد، فإلى جانب إسلام الفاتحين الأجانب كان هنالك تسامح مع الدين المسيحي الذي طورته اسبانيا بحيث أصبح لها أعيادها الدينية والثقافية وطقوسها الخاصة وكتابها وقديسوها، ورغم ان مكانته كانت دون الإسلام إلا انه كان له وضع قانوني كامل)) (٦).

ويضيف غابرييلي ان الشريعة الإسلامية التي نقلها الفاتحون والتي اتسمت بالعدالة والمسامحة كانت عقيدة تختلف عما جاء به المسيحيون بعد انتقال اسبانيا إليهم فقد اختفت رياح العدالة الإسلامية لتحل محلها رياح التعصب والاضطهاد فهو يقول: ((ان الإسلام أضفى على عقائد أهل الكتاب (المسيحية واليهودية) مكانة خاصة يحميها الشرع، وان تكن ذات مرتبة أدنى في الدولة، أما قانون المسيحية فليس فيه مكان لأي دين اخر فقد انتقلت المسيحية بسرعة وبتطور منطقي عندما انتصر على الإسلام إلى التعصب والاضطهاد، ذلك هو تاريخ اسبانيا الديني المؤسف.))(٧).

لقد كان للفتح الإسلامي بوادره الايجابية وتصحيحه في بناء الحضارة الشرقية في الغرب(٨)، فيقول غابرييلي: ((لقد جاءت الثقافة العربية إلى الأندلس وكانت معظمها شرقية الأصل .... وكانت سببا في الازدهار الذي طرأ على الثقافة العباسية فيما بعد .... ولم يمضي وقت طويل حتى أخذت البذور المغربية والاندلسية تثمر وتجنى ويعاد غرسها في بيئة ذات أصل روماني وهو التراث الذي أخذته فيما بعد أوربا منتحلة شخصية أوربية في كل عمل عربي))(٩).

وهذا أروع تراث وأروع تاريخ شهدته اسبانيا والجزيرة الايبيرية بكاملها فقد كان للفتح العربي والوجود العربي في شبه الجزيرة أثره البالغ فقد ترك لمساته وطابعه على اللغة بعمق وخصوصا من حيث المفردات، وهذا الأثر تناول مختلف جوانب الحياة من زراعة وحِرف إلى فنون ومن تجارة إلى الإدارة ومن الحرب إلى العلم(١٠).

وكان تأثير الفتح الإسلامي كبيراً وخلاقاً فقد خلق حضارة استقت مفاهيمها من أفكار ونظم الفاتحين العرب وان المسيحية الاسبانية استقت من عقيدة الخصم (المسلمين) أفكاراً ونظما وأحوالاً فكرية لذلك كان الإسلام ومنظم فكرياً لتلك الدول الأمر الذي منحها الاستقرار

والتطور فيما بعد ولا يفوتنا ما ذكره غابرييلي بحق الحضارة العربية: ((فان من أعظم فضائل الحضارة العربية في اسـبانيا وانتـشارها الثقـافي فـي أوربـا انتقـال العلـوم والفلـسفة العربيتين))(١١).

وأخيراً .... فان غابرييلي ينهي رأيه بقوله: ((ومن المؤكد انه مع افول القوة السياسية للعرب في اسبانيا فان تراثهم الذي تركوه للغرب أصبحت له أبعاد هائلة: ففي القرنين الثـاني عشر والثالث عشر أصبحت برشلونة وطليطلة واشبيليا مراكز لنشاط مكثف للمترجمين اليهود والأسبان والمسيحيين من بلدان أوربا))(١٢).

المبحث الثاني: فتح جنوب ايطاليا

أما بالنسبة لشبه الجزيرة الايطالية فان غابرييلي يتحدث عن الإسلام وكأنه معـضلة تاريخية أو نكبة أصابت الجزيرة الايطالية متجاهلاً أو متناسياً انه بفضله والذي كان ايجابيـاً سواء على الصعيد السياسي او الصعيد الاجتماعي مولداً الحدث الحضاري والذي خلفه العرب كان سببا بانتعاش ونهضة أوربا فهو يصف الفتح قائلا: ((اما بالنسبة لشبه الجزيرة الايطاليـة ذاتها فقد تأثرت بدرجات متفاوتة بانتشار الإسلام في البحر المتوسط ولم ينجح الإسلام الا في إمارتين عربيتين صغيرتين لم تدوما مدة طويلة في ابوليا وان فتح المسلمين لجنوب ايطاليا لم يعرف عن المسلمين (الراسنة) هناك سوى انهم مصدر للقلق ودائمي الفوضى والغارات طيلة القرنين التاسع والعاشر وعاملا مزعجا في الصراعات الداخليـة ..... وأدى تحـالفهم مـع اللونغبارديون والبيزنطين واعتصروا الربح والغنائم ذات اليمين والشمال))(١٣).

ويوضح غابرييلي ان فتح جنوب ايطاليا هو فتح كانت الغاية منه الربح والغنائم وهـو يختلف عن فتح صقلية ويرفض ان يكون لنشر الإسلام أية بوادر ايجابية وان سـلبية الفـتح جاءت بنتيجة هي السلب والنهب والفوضى العارمة التي غطت البلاد، خصوصاً وان الوجود العربي كان اقل تأثيراً عما هو في صقلية وذلك حسب رأي غابرييلي الذي أكـد: ((ان فـي ايطاليا لم يتح للعرب الوقت أبداً لتنظيم حياة أكثر استقراراً وتنظيماً من حياة السلب والحـرب لنا فان العصور الوسطى المبكرة في ايطاليا لم تعرف من الجهـاد الإسـلامي إلا تأثيراتـه الهدامة)) (١٤).

الا ان ما غاب عن غابرييلي هو ان يوضح كيف كانت الأوضاع الداخلية لتلك البلاد وان الصراع كان قائما ما بين عدة قوى داخلها وان امر تفكك مجتمعها ودويلاتها هو أمر قد حصل قبل فتح المسلمين لجنوب ايطاليا (١٥) وان تعاون قـوى مثـل اللونغبـارديون مـع المسلمين ضد البيزنطيين قد حدث مثله سابقاً في فتح الأندلس واسبانيا واسـتطاعت بفـضل المسلمين العرب إنشاء حضارة عالية لها وزنها بين الحضارات وان تلـك المـدن اسـتعانة بالمسلمين لتخليصهم من الفوضى والاضطراب(١٦).

ويضيف غابرييلي: ((ان اجتياح الثقافة لايطاليا لم يأتي عن طريـق هـولاء الغـزاة البرابرة الذين ظلوا جسماً غريباً في البنية الاجتماعية لجنوب ايطاليا كما انه لـم ينقـل إلـى ايطاليا أية فائدة حضارية من جراء الموجة الثانية من الغزاة العرب الاسلامين التي هبطت في القرن التاسع وبوجه خاص من جبال الااب واجتاحت مناطق بيدمونت وليغوريا مرات عديـدة ووصلت في بعض الأحيان حتى وادي البو))(١٧).

ورغم الحقيقة الواضحة إلا ان المستشرق غابرييلي يتجاهل فضل المـسلمين العـرب بنقل هذه الثقافة ونشر الدين الإسلامي ويصفهم بالبرابرة وانه لولا فـتح اسـبانيا والأنـدلس وايطاليا لما كان تراث العرب وعلومهم قد وصل إليهم وهي حقيقة لا يمكن تجاهلها وان بقاء المسلمين كجسم غريب في البنية الاجتماعية فهو امر مرهون بالظروف السياسية التي تعيشها البلاد ولا يمكن بقاء أناس أصحاب حضارة وعلم كجسم غريب داخل المجتمع الايطالي بل ان السمة التي يتميز بها الدين الإسلامي قابليته على الاختلاط والاندماج بسهولة داخل الـشعوب المفتوحة ومما يؤسفنا ان غابريلي ينتقل تارة بين الايجابية في ارائه وبين السلبية والذي حاد به تسمية الفاتحين تارة بالغزاة وتارة اخرى بالفاتحين وهو ما يرسم التناقض فـي راي هـذا المستشرق ويضيف غابرييلي انه لم يكن للفاتحين العرب فضلا في نقل هذه العلـوم والفنـون وان انتقال هذا لارث الحضاري والعلمي هو عن طريق التجارة ومن خلال الرحالة والعلمـاء وليس عن طريق غزو المسلمين المدمر فهو يقول: ((ان عناصر الثقافة الماديـة الإسـلامية والعلم والفن كانت من خلال التجارة ومن خلال الرحالة والعلماء، وبعد قليل بواسطة الهجـرة الثقافية الكبيرة من اسبانيا المسلمة)) (١٨).

وانه لولا وجود حكم سياسي او استقرار نسبي في جنوب ايطاليا لمـا توجـه إليهـا العلماء والرحالة لنقل علوم المسلمين إليها وليس الأخذ منها، لكن ما غاب عن غابرييـل انـه يدور في دائرة مفرغة والحقيقة انه لولا الإسلام لما انتقلت علوم العرب إلـيهم وقـد بـرزت لمسات المسلمين والفنون الإسلامية لا في كنائس جنوب ايطاليا فقط وإنما حتـى فـي وسـط ايطاليا وظهرت ثمار علم الطب والصيدلة العربيين حتى النصف الثاني من القـرن الحـادي عشر أي قبل تدفق العلم الإسلامي إلى أوربا من خلال اسبانيا وفيمـا بعـد عبـرت العلـوم والفلسفة العربيتان جبال البرانس الى فرنسا وايطاليا (١٩).

وعبر الطريق السابق عبرت كذلك ما يصفها غابرييلي بالأفكـار الـشعبية المتعلقـة بالتقوى العالم الآخر ويؤكد غابرييلي: ((ان أفضل ما جاء إلى ايطاليا بعد عام ١٠٠٠م لم يأت من الشرق مباشرة بل من الجسر الثقافي الذي أقيم في شبه جزيرة ايبيريا ومن ثم فهو إشعاع للتراث الشرقي من خلال هذا الطريق))(٢٠).

وكان حريا بالمستشرق غابرييلي ان لا ينكر فضل الإسلام سواء الجزيرة ايبيريـا او الجنوب ايطاليا وانه لولا العرب لما نهضة أوربا وخير ما يثبت تأثير الدين الإسلامي الايجابي لايطاليا هو خلاصة التأثيرات العربية على الحضارة الايطالية في العصور الوسطى (سواء ما وصفه غابرييلي عن طريق التجارة او العلماء او عن طريق الفتح بشكل مباشرة) لكن انه لولا تامين طرق التجارة واستقرار العرب داخل تلك البلدان الأمر الذي أسهم بظهـور الإبـداعات العلمية والأدبية العربية إضافة إلى انتشار الدين الإسلامي والذي يصفه غـابرييلي (بالأفكـار الشعبية) وهو ناتج عن اندماج العنصر العربي مع العناصر المغايرة الأخرى داخـل جنـوب ايطاليا، ولم يذكر لنا غابرييلي عن أي حالات سلبية صادفت الفتح او صفة التعسف والإكـراه التي لازمت اللسن المستشرقين عن الفاتحين المسلمين فهو لم يذكر أيـة محـاكم تفتـيش او محاسبة لازمت الفاتحين كما لازمت هذه الحالة حين سقطت الأندلس بيد المسيحيين.

وان وصول الثقافة العربية والعلوم واللغة الى تلك البلاد هو من واقـع ان الإسـلام مصدر بناء وليس كما يصفها غابرييلي (غزوات مدمرة) ويكفنا إشارات الرحالة (ابن حوقل) والتي نقلها لنا غابرييلي نفسه والتي تحدثنا على استمرار المبادلات التجارية وتوكيلات تجارية ايطالية في الشرق مثل توكيلات امالفي(٢١) فهذه الشواهد هي برهان واضح علـى صـحة سيرة الإسلام هناك.

المبحث الثالث: فتح صقلية

يحدثنا المستشرق غابرييلي عن عظمة هذا الدين وهذا الفتح الذي أصبح فيمـا بعـد عقيدة كونية خالدة وقوة عالمية وان هذا الدين جاء ليبني حضارة تاركا إياها فيما كي نـستمر بتطويرها وتحفزها في ظل الشريعة الإسلامية.

ووصف الدين والفاتحين انهم أقوام جاءت من أكثر مناطق العالم بدائية وتخلفا (ولـد الإسلام في منطقة من أكثر المناطق في العالم القديم بدائية وتخلفا، ولكن سرعان مـا تجـاوز حدوده وتطور من ظاهرة محلية وعامل داخلي في حياة الأمة العربية إلى عقيدة كونية وقـوة عالمية)(٢٢).

ربما نتسال كيف لهولاء الفاتحين أبناء الصحراء والبدائيين والمتخلفين على حد قـول غابرييلي ان يحملوا عقيدة خضعت لها الأمم والشعوب والأديان ولم يكـن الـدين الإسـلامي ظاهرة قد ظهرت لتزول بزوال المؤثرات التي ظهر لأجلها وانما حقيقة مذهبية حملـت بـين طياتها سمات عالمية ومبادئ خالدة جعلت من الشعوب تخضع لهـا دون سـيف او إرهـاب والدليل انه تجاوز حدوده خارج الجزيرة العربية متحديا بانه رسالة عالمية فهو يقول: ((كـان -أي- الفتح القوة العجيبة التي تشع من العقيدة الجديدة ومن الدولة التي أقامتها هذه العقيـدة،

والتي نمت في كل اتجاه وأنتجت حضارة موحدة إلى حد يدعوا للدهشة وذلك رغم الاخـتلاف الشديد بين البيئات والمستويات الثقافية التي ازدهرت عليها ..... ونعني بذلك وبصورة خاصة العالم العربي المطل على البحر المتوسط))(٢٣).

ويستمر غابرييلي الذي يصف الفتح الإسلامي تارة فتحا وتارة أخرى غارات الا انـه لا ينكر فضل الإسلام او الغارة كما يدعيها ((لقد حمل ذلك الإسلام او تلك الفتوحـات تراثـا ساعدت على تمثيل وتطوير الشعوب التي احتكت بها وقد قدمت الحـضارة الإسـلامية فـي عصره الوسيط تراثها الثقافي الذي كان ذا اثر بالغ في تطوير الغرب في المستقبل))(٢٤).

ولقد استمر غابرييلي بإثارة حقيقة الإسلام فهو العامل الوحيد الذي نقل تراث وعلـوم العرب الذي ساعد بدوره على تطوير شعوب البلدان المفتوحة إلى احتكت بالفاتحين وكان لهذا التراث الحقيقي والأصيل والعربي الأصل والمنشأ كان ذو اثر بالغ بتطوير ودعم الغرب فـي المستقبل.

ويصف غابرييلي سرعة هذه الفتوحات وكيف انها جاءت فتوحات لنشر الدين ولـيس طمعا بغنيمة او محاولة فرض السيادة بالسيف فهو يقول: ((لقد اتسمت هذه الفتوحات بطاقـة ونجاح لم يسبق لها مثيل بما حملته معها من دين رغم ان هذا الـشعب كـان حبـيس ارثـه الصحراوي الذي امتد إلى قارتين رغم قصر الفترة التي حملت معها نقاء العروبة لذاك التوسع والفتح، وما حمله الإسلام معه من عالمية كامنة والتي سرعان ما طغت على قومية الجـنس القائد المتمركزة حول نفسها، وقدرة الدين الجديد على استمالة واستيعاب عناصر عرقيـة ذات أصول شديدة الاختلاف وصهرها في بوتقة مجتمع وديني واحد))(٢٥).

وان نجاح الفتوحات في تحقيق هدفها وهو نشر الدين الإسلامي واستمالة الشعوب إليه هو نتيجة لما حملته هذه الفتوحات من إنسانية وأخلاق الدين الذي حدا بالشعوب الدخول فيـه دون أدنى فكرة للشك ومسالة عدم إكراه الناس بهذا الدين الذي أصبح سمة مميزة لهذا الـدين والفتح ترك رد فعل مقبولا لدى الشعوب التي تبنت فيما بعد نشر هذا الـدين بكـل أخلاقـه ومبادئه.

لقد ساهم الفتح الإسلامي على استمرار وانتعاش التجارة بين جزئي البحر المتوسـط عبر مضيق ايطاليا صقلية، رغم الصراع الطويل بين البيزنطينيين والمسلمين لكن إضافة إلى انتعاش التجارة فان سيطرة المسلمين الطويلة على تلك المناطق جعلت من هذه الجزيـرة (دار السلام) بكل معنى الكلمة رغم ان حالات الحروب قد تسبب في بعض الأحيان قطع للعلاقـات الثقافية او شلل في حركة التجارة الا انه لم يثبت ان الفتح الإسلامي لتلك المنـاطق قـد اثـر سلباً(٢٦).

ويضيف فرانسيشكوا: ((ان الإسلام أسهم بعملية استرداد ممتلكات الكنيسة الهائلة التي ازدادت بها ثراء وذلك لتقوى الملوك وسياستهم العادلة))(٢٧).

فضلاً عن الفاتحين لم يحاربوا الشعوب المفتوحة في لغتهم ولاعرقهم اوديـنهم لـذلك كان انتشار هذه الأديان شيئاً طبيعياً وقد تمتعت بحماية قانونية إسلامية كاملة وهذا شيء نـابع من جملة أخلاقيات الدين الإسلامي والفتح وليس من قوة تمسك تلك الشعوب بدينها او لغتهـا ويضيف غابرييلي ((ان سماحة الدين الجديد أسهمت في جعل الشعلة المسيحية مـستمرة فـي صقلية لانها كانت تعتبر دينا مسموحا به من ديانات أهل الذمة ولقد أسهم فتح العـرب لتلـك المناطق ومنها صقلية أسهمت في استثمار الموارد المادية فقد انتشرت زراعة الثمار الحمضية والتي لا تزال عماد الاقتصاد الصقلي إلى اليوم وكذلك زراعة قصب السكر والتوت والنخيـل والقطن الذي استمرت طيلة استمرار التأثير المادي من الحضارة العربية ثم اختفت في القرن الرابع عشر وان كانت قد بقيت في مدن مثل مالطة واسترومبولي))(٢٨).

ويبقى غابرييلي يؤكد ان الفترة العربية او لاجدر تسميتها الفترة الإسلامية تصل تلـك الفترة التي رافقت الفتح منذ البداية تظل أعلى قمة وصلت إليها الجزيرة الكبيرة الواقعـة فـي البحر المتوسط، سواء من حيث استثمار مواردها والحياة المادية المتعلقة بها وقـد أسـهمت صقلية الإسلامية في الحياة الفكرية العامة وكان ذلك بفضل الإسلام لتلك الجزيرة الذي أسـهم بدوره في ازدهار دراسة القانون والفقه واللغة (الفيلولوجيا) والنحو فضلا عن فـن العمـارة والفن التصويري وظهور الحمامات كحمامات كفلا قرب باليرمو، وان رصيد الفتح الإسلامي يحسب بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي للفترة الإسلامية الذي بقى الـشاهد الوحيـد على أعجوبة الفتح الإسلامي وارثه الحضاري(٢٩).

ويرجع غابرييلي ليناقض كلامه فبعد الأمجاد التي تلوهـا العـرب علـى الـشعوب المفتوحة يعود ليقرر ان دافع المسلمين لفتح صقلية وطرد البيزنطينيين من البحر المتوسط هو ليس بدافع نشر الدين الإسلامي وان كان دافعا موجودا او غير غائبا وانما كان للفتح دوافـع أخرى مثل شعور العرب بالنقص من الدولة البيزنطينية والرغبة والإعجاب في محاكاة الدولة البيزنطينية في المجال الإداري والاجتماعي وفي الطقوس والفن))(٣٠).

وغاب عن مستشرقنا ان العرب لم يكن لديهم أية شعور بالنقص بـل بـالعكس كـان شعورهم بالتفوق أعمق واكبر، أما الطقوس لم يكتسبوا أية طقوس لانه كـان لهـم طقوسـهم وشعائرهم الدينية، وأما الأعمال الفنية والنظم الإداريـة والتـي يظهـر فيهـا التـشابه مـع البيزنطينيين فهي من تراث بلاد الشام ومصر وكان صناع هذه البلاد ورجالهـا هـم الـذين يعرفون أسرار تلك الأعمال ويبتكرون ما شاءوا فيها رغبة فـي إبهـار الدولـة البيزنطيـة المتاخمة الحدود مع الدولة العربية الإسلامية.

الخاتمة:

في ختام بحثي لابد من ذكر ما خلصت إليه من نتائج بعد دراسة كتابات المستـشرقين وجدت انها تنقسم إلى قسمين الأول خالف منهج البحث العلمي لذلك اتسمت أرائهم بالعدائيـة لأسباب سياسية ودينية واقتصادية اعتمادهم بذلك على ما تناقلته قصص الجنود الصلبيين عن الشرق الإسلامي، بينما اعتمد القسم الثاني على المخطوطات التراثيـة ولاسـيما ان العمـل بتحقيق المخطوطات قد بدأ وهو قسم لحد الآن مما أدى إلـى شـيوع مـصادر الـسيرة ؟؟ للمستشرقين واطلاعهم عليها وبالتالي رفضهم لمعظم الأساطير والقصص السابقة وهـو مـا ذكره المستشرق فرانشيسكوا غابرلي الذي وضح طريق انتشار الإسلام فـي منطقـة البحـر المتوسط وكيف انتشرت العلوم الزراعة والاقتصاد بفضل هذا الدين الجديد.

الهوامش

1. فرنشيسكوا غابريلي: الإسلام في عالم البحر المتوسط، من تـراث الإسـلام تـصنيف شاخت ونوزوت، ترجمة زهير السمهوري، القسم الأول، الكويت، ١٩٧٨،ص١٢٧.
2. فرنشيسكوا غابريلي: الإسلام في عالم البحر المتوسط، ص١٢٧.
3. مونتيجبري وات: اثر الحضارة العربية على أوربا، تدار الثقافـة والإرشـاد القـومي، دمشق.
4. فتحي عثمان: أضواء على التاريخ الإسلامي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٥.
5. عبد العزيز الدوري: تفسير التاريخ، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٩.
6. فرنشيسكوا غابريلي: الإسلام في عالم البحر المتوسط، ص١٢٨.
7. فرنشيسكوا غابريلي: الإسلام في عالم البحر المتوسط، ص١٣٤.
8. بدر الدين السباعي: الحروب والشعوب، دار ابن الوليد، حمص، ١٩٥٧.
9. فرنشيسكوا غابريلي: الإسلام في عالم البحر المتوسط، ص١٣٥.
10. حسن طه مدور ورفاقه: الديانات والحضارات.
11. فرنشيسكوا غابريلي: الإسلام في عالم البحر المتوسط، ص١٥٢.
12. نفس المصدر: الإسلام في عالم البحر المتوسط، ص١٥٣.
13. نفس المصدر: الإسلام في عالم البحر المتوسط، ص١٢٣.
14. نفس المصدر: الإسلام في عالم البحر المتوسط، ص١٢٤.

١٥. نزار الحديثي: محاضرات في التاريخ، بلاط العربي،، بغداد، ١٩٧٩.
١٦. ناجي معروف: أصالة الحضارة العربية، بغداد، ١٩٦٩، ص١٤١.
١٧. فرنشيسكوا غابريلي: الإسلام في عالم البحر المتوسط، ص١٢٤.
١٨. نفس المصدر: الإسلام في عالم البحر المتوسط، ص١٢٤-١٢٦.
١٩. عبد الحميد بخيت: ظهور الإسلام وسيادة مبادئه، ط٣، مصر، ١٩٧٧، ص٨٣، كذلك عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ط١، بيروت، ١٩٧١، ص٨٥٢ وتاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس، ط١، بيروت، ١٩٦٢، ص٤٤.
٢٠. فرنشيسكوا غابريلي: الإسلام في عالم البحر المتوسط، ص١٢٥.
٢١. نفس المصدر: الإسلام في عالم البحر المتوسط، ص١٠٥.
٢٢. فرنشيسكوا غابريلي: الإسلام في عالم البحر المتوسط، ص١٠١.
٢٣. نفس المصدر: الإسلام في عالم البحر المتوسط، ص١٠١.
٢٤. نفس المصدر: الإسلام في عالم البحر المتوسط، ص١٠٣.
٢٥. نفس المصدر: الإسلام في عالم البحر المتوسط، ص١٠٥-١٠٦.
٢٦. خليل رجب حمدان الكبيسي: السلام الدولي في الإسلام، رسالة ماجستير غير منشورة من كلية الشريعة، جامعة بغداد، ١٩٨٧، ص١١٤.
٢٧. فرنشيسكوا غابريلي: الإسلام في عالم البحر المتوسط، ص١١٦.
٢٨. نفس المصدر: الإسلام في عالم البحر المتوسط، ص١١٧-١٢٠.
٢٩. نفس المصدر: الإسلام في عالم البحر المتوسط، ص١٢٠.
٣٠. نفس المصدر: الإسلام في عالم البحر المتوسط، ص١٢٠.